



مظاهر التدين في المجتمع العراقي دراسة سوسيولوجية

م.د. خوام مانع محمد الجميلي
م.م. احمد صالح احمد داود



Manifestations of religiosity in Iraqi society a sociological study

*Dr. Khawam Maneh Muhammad Al-
Jumaili
M. Ahmed Saleh Ahmed Dawood*



ملخص البحث

تُعد الحرب ظاهرة اجتماعية تحدث في جميع العصور منذ القدم والى عصرنا هذا ، وأثرت تأثيرات كبيرة وهائلة على الدول والمدن والاجيال ، كالحرب العالمية الأولى والثانية والتي كان أثرها المباشر في تغيير وجهة الفنون العالمية ومدارسها ، فضلاً عن فلسفة المجتمعات وحراك التعايش الطبقي الاجتماعي ، ويظهر جلياً ان للحرب التي عاشتها مدينة الموصل أخيراً دوراً في المنجز التشكيلي ، والتي أثرت في تفاصيل التحول في الأداء الفني عند اعمال الفنانين الموصليين بشكل خاص ، والعراقيين بشكل عام الذين عاشوا هذا الحدث وقراءته عن قرب وتحويله الى اعمال فنية .

ويؤشر ذلك وجود أساليب واتجاهات اختطها المناخ العام الذي أطر بنية الفن حيث تندرج تحت مصطلح (التعبير عن الحرب) ، التي كانت إنجازات للفنانين وأثر مخلفات الحرب عليها وما وقع تحت ظروف استثنائية تسلطت على نسيج فكري معاصر ومناظر وثقها التاريخ .

Abstract

War is a social phenomenon that occurs in all ages from antiquity to our time , and has affected huge and tremendous effects on countries , cities and generations , such as the First and Second World War, which had a direct impact on changing the direction of the global arts and its schools , as well as the philosophy of societies and the mobility of social class coexistence , It is evident that the war that the city of Mosul recently experienced has a role in the technical achievement , which affected the details of the shift in artistic performance by the works of Mosulian artists in particular , and the Iraqis in general who lived this event , read it closely and turned it into artistic works

This indicates the existence of methods and trends mapped out by the general climate that framed the architecture of art , which fall under the term (expression of war) , which were the achievements of artists and the impact of the remnants of war on them and what happened under exceptional circumstances that shed light on a contemporary intellectual fabric and scenes documented by history

المقدمة

من الواضح أنّ مجتمعنا ينظر إلى المتدينين في الغالب نظرة احترام وتقدير؛ لأنه يرى في المتدين الإنسان الأقرب إلى الله، ومن ثم فالناس يقدرّون من يبدي تديناً في حياته العامة، ويرون فيه القدوة الحسنة في الصدق والاستقامة، لذا نراهم يرصدون كل تفاصيل حركاته وسكناته، بحيث يرون في أخطائه - حتى وإن كانت صغيرة - ضلالاً جسيماً، لا يستسيغونه منه، دون إدراك منهم أن المتدين إنما يعبر عن رؤيته الذاتية للدين، وأنه كسائر البشر يخطئ هنا ويصيب هناك، ناهيك عن أن المتدين نفسه قد يتخذ التدين ستاراً وغطاءً لتحقيق مكاسب شخصية، وغايات سياسية، عن عمد في بعض الأحيان، فيلطح الدين في أحوال تلك المآرب، ويسيء له بذلك السلوك النفعي، والأكبر من ذلك أصبح الدين وخاصة الاسلامي وسيلة لتنفيذ مشاريع سياسية من العيار الثقيل، والوضع الدولي الراهن خير شاهد على ذلك.

ولا جرم أن هذه النظرة التبجيلية للمتدين في المجتمع أعطته مكانةً خاصةً بين الناس؛ فهو يتصدر المجالس، وينعته الناس بألقاباً ذات مدلول ديني تعبدي أو فقهي، مثل: حضرة الملا، فضيلة الشيخ، السيد، ... الخ، - حتى وإن كان لا يحمل الحد الأدنى من التأهيل العلمي والفقهي - مما منحه الفرصة التامة لأن ينبري للوعظ والإرشاد، ويتخطى ذلك الدور أحياناً، فيمنح نفسه حق التدخل التلقائي في حسم الكثير من الإشكالات الزوجية والاجتماعية، دون أن يطلب أحد منه ذلك الفعل، فيكون حضوره طاعياً في المناسبات الاجتماعية، ثم يدفعه تدينه المشوش والمغالي به في أحيان كثيرة إلى التشدد، فيفرض نفسه رقيباً على العباد، عاداً عليهم حركاتهم وسكناتهم في كل حين، ناسياً أو متناسياً أخطاؤه التي لا تعد ولا تحصى أو محاولاً تبريرها وتسيوغها، فصار بهذه الكيفية عامل تنفير من الدين، بسبب التناقض بين مظهره الديني الجهل الواضح في أغلب الأحيان، ومن ثم كان وبالاً على نفسه وعلى الإسلام والمسلمين معا.

والجدير بالذكر ان ظاهرة التدين هذه - اي تظاهر الناس بالدين - شاعت في المجتمع العراقي مؤخراً*، ونود أن نلفت الانتباه هنا إلى مسألة مهمة، وهي ان مسألة تدين (العوام) من الناس لا تشكل ضرراً ملموساً بقدر ما يتشكل الضرر من تظاهر (الخواص) اي من لهم اتباع يتبعونهم ويستمعون إليهم، أو كمن هم في مواقع السلطة او المسؤولية أو حتى أصحاب الجاه من العشائر واصحاب المنابر وأئمة المساجد، فهذا يكون اكثر ضرراً فهو يملك قاعدة جماهيرية تسمع له وتطيع، وبإمكانه التأثير عليهم.

وهناك رأي لابن خلدون يقول: "أن القائمين بأمر الدين من القضاء والفتيا والإمامة والخطابة وما شابه ذلك، لا تعظم ثروتهم، ويرجع سبب ذلك إلى نبل مهنتهم وقلة فراغهم، فهم لا يبتذلون انفسهم ولا يطلبون من أحد، أعزة في نفوسهم مُهابين بين الناس، وعلى ذلك يضرب لهم الحاكم نصيباً من الرزق من أجل لقمة عيشهم، فهو لا يساويهم بأصحاب الشوكة وأهل الصنائع"⁽¹⁾.

إن رأي ابن خلدون هذا وجيه وواقعي الى حد كبير، ولكنه ربما ينطبق على زمانه وربما بعده بسنين عديدة، أما في زماننا هذا فالأمر يختلف كثيراً، ولا اظنه ينطبق وكما سنرى في صفحات هذه الدراسة.

ويرى البعض ان جوهر الدين يأتي بمعنى التدين أو الغاية القصوى للإنسان المتدين، او هو هدفه من الالتزام الديني. والباحث هنا لا يميل إلى هذا الرأي، بل يرى ان جوهر الدين شيء مختلف عن التدين، إذ (التدين) "يعني الالتزام الحرفي بالدين علماً وسلوكاً، يلامس ضمير أو قلب الشخص بحيث ينعكس على طباعه الحقيقية واخلاقه وتعاملاته مع الناس"⁽²⁾. وقد عرف بعضهم الدين بوصفه: نظاماً ثقافياً فاعلاً، يقيم حالات نفسية وحوافز قوية شاملة ودائمة في الناس، عن طريق صياغة مفهومات عن نظام عام للوجود، وإضفاء هالة من الواقعية على هذه المفهومات بحيث تبدو هذه الحالات النفسية والحوافز واقعية بشكل فريد⁽³⁾. أي ان جوهر الدين يعني تطبيق روح الدين، ومعاملة الناس بالحسنى وعدم استغلالهم واستغلالهم، اي أن يكون ذلك منهجاً وسلوكاً يعيشه الفرد ويتعامل على اساسه مع الناس تقرباً لله، وأن يحب لهم ما يحبه لنفسك، لا أن تجعل من الدين خطب وعظات جوفاء لا تسمن ولا تغني من جوع.

عناصر البحث

1- أهمية البحث: تنبع أهمية البحث في فك اللبس الحاصل بين مفهومي الدين والتدين، كما يوضح ان هناك عدة وجوه للتدين، لأن هناك بعض الناس يلبس عباءة الدين لا ابتزاز الآخرين او لتمرير مشاريع نفعية مختلفة، وتوضيح ان الولايات التي تمر بها الامة اليوم هي من ضحايا بعض انواع التدين، ستتم الاشارة اليها في ثنايا البحث.

2- اسباب اختيار البحث: ان سبب اختيار الموضوع هو كون التدين اصبح مفهوم شائك يتمثل في اختلاط المظهر بالجوهر والصالح بالطالح، او كما يقال اختلاط الحابل بالنابل،

مما انتج لدينا نفاقاً مجتمعياً إن صحت التسمية، زد على ذلك شدة تمسك الناس بهذه المظاهر وجريهم وراء المتدينين تاركين وراءهم جوهر الدين وألبه. وعلى هذا فقد جاء البحث مصاغاً بعدد من التساؤلات هي:

- هل التدين نوع واحد أم انواع متعددة؟

- من هم المتدينون الحقيقيون؟

- ما هو الفرق بين الدين والتدين؟

- كيف يتمظهر التدين؟

- هل ان التدين يمثل الدين فعلاً؟

-

3- اهداف البحث: تسعى هذه الدراسة الى تحقيق جملة من الاهداف لعل من اهمها:

أ- التعريف بمفهوم التدين في اللغة والاصطلاح وفي الشريعة الاسلامية .

ب- التعرف على بعض الدراسات القريبة من موضوع دراستنا.

ت- معرفة الاسباب التي تجعل بعض الناس يتمسكون بمظاهر التدين.

ث- كما تسعى هذه الدراسة الى معرفة حقيقة هذه المظاهر ومدى صلتها بجوهر الدين، ومدى خطورتها على المجتمع.

ج- محاولة توضيح ما هو التدين الحقيقي وما شروطه.

4- منهج الدراسة: نظرا لتداخل موضوع التدين بين الفكر والسلوك، ولا يمكن تحديد فترة زمنية محددة لبداية هذا التداخل، لذا لا بد من استخدام المنهج الوصفي لتوضيح هذه الدراسة.

5- صعوبات الدراسة: ان موضوع الدين بشكل عام من المواضيع الحساسة والتي يصعب الخوض بتفاصيلها لأنها موضوع عقائدي ولا نستطيع تحديد فئة بعينها، لذا لا بد من اللجوء

الى الاسلوب السهل الممتنع للتتويه عن هذا الموضوع دون التسمية، ثم انه موضوع ايماني من غير الممكن تحديد او تسمية شخص معين، لذا من الصعوبة توضيحه او تفصيله.

6- الدراسات السابقة: لم يعثر الباحث على دراسات سابقة تتناول موضوع التدين كما تناولته دراستنا هذه، وإنما كل الدراسات التي استطعنا الوقوف عليها تناولت التدين مرتبطاً بمتغيرات اخرى كأن يكون التغيير الاجتماعي او التطرف او علاقته بمتغيرات اخرى اجتماعية او نفسية، ومن هذه الدراسات هي:

اولاً: التدين الشبابي: نمط منفلت من المؤسسة الايديولوجية(4).
لقد سعى الباحث في بحثه هذا الى القول بأن الحركات الدينية في مصر (الاخوان المسلمين) والتي يقودها الشباب استطاعات ان تتمرد على الايديولوجيا السائدة وتخرج على المؤسسات الحاكمة وان تغير النظام برمته. ومن اهم النتائج التي توصل اليها هي ان انفلات هذا النمط من التدين، فكما ان التدين الشبابي منفلت من رابطة الشيخ – التلميذ فهو بالضرورة لا يخضع لكل الروابط الأبوية المشابهة في أي مؤسسة ايديولوجية عربية اخرى.

ثانياً: التدين الشعبي لفقراء الحضر في مصر: آليات المصالحة والقبول والرضا والتحايل(5).

لقد اعتمد الباحث في بحثه هذا اسلوب المسح الاجتماعي معتمدة على الاستبانة والمقابلة لجمع المعلومات، وهو في بحثه هذا اراد أن يوضح حالة التدين المصاحبة لحالة الفقر المزمن في الأحياء الشعبية المصرية والمشبعة بالبؤس والذل والخنوع، وكيفية تلاعب ارباب السلطة بمقدرات هذه الاحياء واستغلال واستغلال اهلهام ومصادرة حتى اموالهم تحت ذرائع شتى.

وقد خلص الباحث الى نتيجة مهمة وهي ابناء هذه الأحياء إنما يلجأون الى التدين كوسيلة للتصالح مع واقعهم المرير والتكيف معه والعيش على هامش الحياة، ثم يستشهد بالمقولة الماركسية (الدين أفيون الشعوب) ليدلل على ان تدين سكان هذه الاحياء جعلهم يرضون حياة الوضاعة التي هم فيها.

ثالثاً: التدين وعلاقته ببعض المتغيرات النفسية الاجتماعية (التوافق الاجتماعي، تقدير الذات) عند عينة من طلبة الجامعة(6).

سعت الدراسة الى كشف العلاقة بين التدين وبعض المتغيرات النفسية الاجتماعية من اجل الكشف عن مدى امكانية اعتماد التدين كعامل اساسي نحو تحسين الصحة النفسية للأفراد. وقد استخدمت الباحثتان منهجين هما المنهج الوصفي الارتباطي والمنهج الوصفي المقارن، على عينة من طلبة الجامعة بلغت (204) طالباً وطالبة. وقد خلصت الباحثتان الى بعض النتائج المهمة منها ان التدين يرتبط ارتباطاً ايجابياً مع كل من التوافق الاجتماعي وتقدير الذات، كما يوجد فروق ذات دلالة احصائية في مستوى التدين حسب نوع التخصص الدراسي للطلاب (ديني/ غير ديني) لصالح طلبة التخصص الديني. ولا توجد فروق ذات دلالة احصائية بين الذكور والإناث في مستوى التدين.

المبحث الاول: جدلية التدين

التدين: لغة: "يقال: دان بكذا ديانة، فهو دَيِّنٌ ومُتَدَيِّنٌ، وتَدَيَّنَ بكذا تعبد به فهو متدين. والتدين مأخوذ من الدين، والدين: هو التسليم والطاعة والتذلل والخضوع والعبودية"(7).
اصطلاحاً: "هو سلوك يمارسه الفرد من خلال تطبيقه لشرائع الدين من عقائد وأفعال وأقوال"(8).

التعريف الاسلامي للتدين: "هو سائق لذوي العقول السليمة باختيارهم الى الصلاح في الحال والمآل، ويرشد الى الحق في الاعتقادات والى الخير في المعاملات"(9).
والتدين في الاسلام يقتضي الايمان بالله على طريقة الاسلام وله مقتضى عملي ينبغي ان يتحقق في واقع الحياة الاجتماعية وهو ادارة كل شؤونها بمقتضى المنهاج الرباني المنزل "وما لم يتحقق هذا المقتضى يظل الايمان نية طيبة لا رصيد لها في الواقع على قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (ليس الايمان بالتمني ولكن بما وقر في القلب وصدقه العمل)"(10).

هناك علاقة جدلية وتداخل بين مفاهيم ومصطلحات، بحيث تكوّن صورة ضبابية على الشخص العامي مثل (الدين والتدين، المظهر والجوهر، التدين الحقيقي وغير الحقيقي)، سنحاول في هذا البحث الفصل بينها لتوضيح الصورة، وكما يلي:

أولاً: التدين بين المظهر والجوهر

المظهر: هو الشيء الواضح منا للآخرين، او ما يسمى بالشكلي، ويظهر من خلال ما نرتديه من ملابس وما نضيفه من مواد تعطي شيء من الجمالية للذكر والأنثى على حد سواء، وهذا يأخذ جانب التجميل في الكلام وفن المراوغة وما شابه.

أما الجوهر: فيظهر من خلال السلوك والمعاشرة والتعامل، ويحتاج الى وقت او تجريب، لأنه يتعلق بما تحتويه النفس البشرية من مكونات داخلية من مشاعر وأحاسيس، وما تحتويه العقل من أفكار واتجاهات قلّ من يعلمها من المحيطين بنا وقد لا نظهرها للآخرين. وللشخصية البشرية في هذا المضمار جانبين، شكلي وعقلي، وان شئنا ان نقول: المظهر والجوهر وبينهما مسافة واسعة تختلف باختلاف الأشخاص وطبيعتهم وما تحتويه قلوبهم، فهناك من يحكمه مظهره ويتعامل فيه مع الاخرين، واخر يجد نفسه يصطدم مع الاخرين لأنه يصر على العيش بواقعية مكونات نفسه دون تجمل او اضافات كاذبة، يأخذ كلامه من عقله ويترك صادق مشاعره تعيش مع الاخرين ليس لديه القدرة على التصنع او المجاملة او قد لا يؤمن بها، لأنه يجد نفسه غريب عن ذاته اذا فعل ذلك، وكل انسان عالم بذاته ويصعب سبر اغواره وهذه من حكمة الله جل وعلا: (سُئِرِهِمْ أَيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) (فصلت: 54)، وبناء على ما تقدم يمكن تقسيم التدين بشكل عام الى نوعين:

1- غير حقيقي أو كاذب أو مصلحي وغير ذلك من المسميات.

2- تدين حقيقي.

1- **التدين غير الحقيقي:** وله اسماء كثيرة كما ذكرت، وتنتشر في كل مكان، ولا تختص بشعب دون آخر، أو ديانة دون أخرى، وبالمناسبة: تكاد تكون ظاهرة العلاقة الجدلية بين الدين والتدين والتمظهر بالدين ظاهرة عامة تشمل جميع الاديان، لدرجة جعلت معهد غالوب الأمريكي يُعدُّ دراسةً عن أكثر المناطق تديناً في العالم، واللطيف في الدراسة أنها وجدت أن العالم العربيّ من أكثر الشعوب تديناً، ولكن في الوقت نفسه، نجد أن شعوب هذه المنطقة تحتلُّ مراكزَ متقدمةً في الفساد والرشوة، والغشِّ والنصب والتزوير (11). والسؤال: لماذا اكثر الشعوب تدينا اكثرها فساداً وغشاً ونصباً... الخ؟ ومن الشعوب العربية التي تحمل رسالة سامية، إذن اين اثر صلاتنا وسائر عباداتنا؟ أم ان صلاتنا هي تمرينات

نؤديها لزيادة اللياقة البدنية، وصيامنا ننهيه بمسلسلات ودراما تركية وضيعة، وحجنا لجلب ماء زمزم و عطور وما شابه. الأمر حقاً بحاجة الى تفسير، وان القران الكريم نبه عن مثل هذه السلوكيات كما في قوله تعالى: (وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (ال عمران: 78)، لقد شخص الله جل وعلا هذه الطائفة من الناس وحذرهم تحذير شديد في قوله تعالى: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَ تَنْزِيلًا بِهِ نَمْنَا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) (البقرة: 79).

اعتاد الناس في المجتمع العراقي احترام صاحب اللحية والعمامة "والهدي الظاهر"، بصفته رمز لأهل الوعظ والنصح والإلتزام الديني والطريق المستقيم، لأن العمامة عندهم لها مدلولات اجتماعية ونفسية، أي انها تمثل مكارم الاخلاق والانضباط ولها هيبه ووقار باعتبارها تنسب الى عمامة رسول الله صلى الله عليه وسلم تشبها وسنة وهيبه ووقار، لذا على من يرتديها ان يعطيها حقها من السلوك الحميد ونبل الاخلاق والا كانت وزرا عليه، غير ان هذه النظرة لم تبقى على ما كانت عليه في السابق من تبجيل وتوقير، فكثير ما نسمع اليوم ونرى على شاشات التلفزيون ومواقع التواصل الاجتماعي من عبارات الشتم بكل اشكالها لكثير من المعممين، جاء ذلك - بحسب وجهة نظرنا - لما وجده معظم الناس من اختلاف وتناقض المظهر والجوهر عند اغلب المعممين وخصوصاً ممن دخلوا ميدان السياسة والسلطة أو ممن انتفعوا منهن على حساب فقر الفقراء وبؤسهم.

ولقد أجريت بعض الدراسات للكشف عن مدى احتفاظ العمامة وجميع اغطية الرأس بمكانتها لدى الشباب، فكانت إحدى هذه الدراسات(12) عن الوظيفة النفسية لأغطية الرأس، اجريت على طلبة جامعة بغداد (الذكور) حصراً، فكانت اجابات الطلبة على احد اسئلة الاستبيان والذي كان:

(إذا كان عليك أن تختار واحداً من أغطية الرأس السبعة المبينة في الصور المرفقة، في موقف يستوجب منك تغطية رأسك فما هو خيارك المفضل؟) وكانت الصور السبعة هي بالتسلسل: 1- عمامة اسلامية. 2- يشماغ عراقي. 3- طاقية عراقية. 4- غطاء الرأس الكردي التقليدي. 5- قبعة عسكرية. 6- قبعة رياضية. 7- قبعة راعي البقر الأمريكي.

وقد ظهر من نتائج هذه الدراسة أن اختار (72%) من افراد العينة ارتداء اليشماغ العراقي بالمرتبة الأولى، أما العمامة الإسلامية فلم تتجاوز نسبتها (7%) من التفضيلات، وهي بذلك تفوقت فقط على القبعة العسكرية وقبعة راعي البقر. تُظهر هذه الدراسة مدى انحسار تأثير العمامة (كمظهر) في اوساط الشباب الجامعي، في مدلولات واضحة على ان هذه العمام لم تقدم شيء (جوهري) مما كان يرجوه منها الشباب الجامعي خاصة والمواطن العراقي بصورة عامة.

2- **التدين الحقيقي:** ان القران الكريم كتاب جامع لإصلاح الدين والدينا، ومن الاعجاز ان يكون كتاب واحد بهذا الحجم وبهذه المواصفات الشاملة، وسر اعجازه هو شدة الاختصار وعدم التكرار الا لضرورة، وتقدر اهمية كل كلمة بمقدار التأكيد عليها. لذا وردت عبارة (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) (53 مرة) هذا التكرار دليل على ان الله جل وعلا وكما جاء في كتابه العزيز: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمَا تَوْسُوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) (ق: 16) يعلم بأن التدين سيكون متنوع ووسيلة كسب ومראה، لذا جاء التوضيح في الآيات الكريمة لتمييز التدين الحقيقي عن غيره. فالتدين الحقيقي اذن لا بد من توفر شرطين (ايمان وعمل) والايمان يجب ان يكون بعلم، فالعلم لتصحيح الاعتقاد، والعمل لتصحيح العلاقات، والعمل يقسم الى قسمين: عمل لتنظيم العلاقات بين العبد وربيه، وعمل لتنظيم العلاقة بين الناس فيما بينهم (وهذه هي مكارم الاخلاق) لحديث النبي عليه السلام (انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق)⁽¹³⁾، والمتدين لا يعتبر متدين حقيقي الا بتوفر هذه الشروط، والمتدين غير الحقيقي لا يسمى متدين بل هو متستر بالدين، لأن الدين اصلا لاصلاح الباطن والظاهر، كما ورد في الحديث (اذا اتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه)⁽¹⁴⁾، فالتدين مالم يزكي الاخلاق ويحمل صاحبه على تحري الحلال والحرام وحسن الخلق وحب الخير والعفة والنزاهة والصدق وجميع مكارم الاخلاق لا يعتبر تدين، ثم وضع الله في كتابه العزيز التدين الحقيقي في قوله تعالى: (لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) (البقرة: 177)

أي ليس البر بكثرة الركوع والسجود، بل الدين المعاملة كما في كتاب الله العزيز: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) (الانعام: 82) وكثيرة الايات التي تفرق الايمان بالسلوك، اذن التدين الحقيقي هو ايمان وعلم وعمل، ولا قيمة لاحدها بدون الاخر، والامثلة في القران الكريم والسنة النبوية كثيرة على كون التدين ليس بالمظاهر، بل هو عمل وسلوك وصدق مع الله والنفس ومع الناس، بل وما ينعكس على سلوك المسلم من خير، وما يمكن تطبيقه من الأوامر واجتنابه للنواهي الشرعية او نقول الدينية لتشمل جميع الاديان، وما خالف ذلك فهو غير متدين على جميع الاديان والملل، على قول الرسول محمد صلى الله عليه وسلم: "أتدرون من المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قال: ان المفلس من امتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا واكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا"⁽¹⁵⁾. فالعقيدة الاسلامية ان لم يرافقها سلوك لا معنى لها لأن التدين الاسلامي عبارة عن سلوك والسلوك عبادة كما في الحديث النبوي: "رجل سأل النبي صلى الله عليه وسلم، من احب الناس الى الله؟ قال: انفعهم للناس. ولم يقل اكثرهم صلاة او صيام او غير ذلك، وسئل ايضا، ما هي احب الاعمال الى الله؟ قال: ان تدخل السرور على قلب مسلم، تقضي عنه ديناً او تكشف عنه كربة او تطرد عنه جوعاً"⁽¹⁶⁾، "ووضع الله شروطاً لمساعدته للعبد عند الشدة، اهمها: ان الله في عون العبد مادام العبد في عون اخيه"⁽¹⁷⁾.

ثانياً: التدين والمتدينين

التدين هو ممارسة شعائر الدين، والمتدين هو من يطبق شعائر وأوامر ونواهي الدين بقناعة تامة تنعكس على سلوكه وتصرفاته، وبنية صادقة دون انتظار مقابل من احد ولا حتى شكر، والمتدينون على فئات مختلفة، فمنهم من يتمسك بالنص الحرفي الجامد الذي جاءت به الديانة ويطلق على هؤلاء المتطرفون او الأصوليون، وهناك فئة ثانية تقبل بالتعديل على النصوص سواء كانت سماوية او وضعية، ولا يلتزمون بالنص الحرفي، اي ينتبعون المعنى والجوهر.. وحجتهم هي ان هذه النصوص جاءت لخدمة البشر فيجب تسخيرها بما يخدم بني البشر في كل زمان، وهؤلاء اكثر تحرراً او كما يسمون ليبراليون او اصلاحيون. وهناك فئة ثالثة همها ممارسة الشعائر والطقوس غير مبالية بالمسائل الفكرية او ما تحويه النصوص، وتختلف وجهات النظر بين المتدينين في امور كثيرة مبررين ذلك بين من يتبع العقل وبين من يتبع النقل وبينهما مسافات كبيرة للفهم والتدين، لذا يقسم التدين الى انواع كثيرة منها الحقيقي ومنها غير ذلك ومن هذه الانواع:

- 1- التدين العقائدي. 2- التدين الفطري. 3- التدين الطقوسي. 4- التدين الجاهلي.

5- التدين الصوفي(الزهدي). 6- التدين العاطفي. 7- التدين المصلحي. 8- التدين السياسي. وربما هناك فئات اخرى غير ما ذكرنا.

والمجتمع العراقي اجده يشتمل على جميع هذه الفئات او ربما زاد عليها، وكحال التقسيمات السوسولوجية التي تقسم المجتمع الى ثلاث طبقات، برجوازية مرفهة، وطبقة وسطى واخرى كادحة او عاملة او كما تسمى بروليتاريا، ينقسم المتدينون في المجتمع العراقي الى اقسام او فئات كثيرة، وكل فئة تجد ما تسوغ به سلوكها وتبرره وربما تلعن اختها. فإذا ما بدأنا بأعلى السلم، نجد أن متدينو الطبقة البرجوازية يتخذون من التدين وسيلة لكسب تأييد الجماهير واستمالة عواطفهم وتعبئتهم تعبئة تلائم اطماعهم في تحقيق المكاسب الشخصية والفئوية والحزبية، مستخدمين لهذا الأمر الامكانيات والاساليب كافة، سيما وأن بيدهم كل مصادر القوة من أموال ووسائل اعلام ووعاظ. هؤلاء الوعاظ مهمتهم هي ارشاد الناس وتوجيههم وحثهم على التحلي بمكارم الأخلاق وبما لا يتعارض مع ايديولوجيتهم بل ويخدم مصالحهم، منذرين من يخالف او يخرج عن أخلاقهم الحميدة والفاضلة بنار وقودها الناس والحجارة، مستخدمين بذلك شتى المواعظ التي تبقى على هؤلاء الناس بحالة من الخدر مقتنعين راضين بقدرهم المحتوم، متحملين بذلك ألوان القهر والظلم والاستبداد والحرمان أملين بعد هذا العذاب الفوز بجنة عرضها السموات والأرض.

وهناك فئة اخرى تتخذ من الدين وسيلة للحصول على مآربهم السياسية والتي يشكلها المتعلمين من المتدينين، فهؤلاء يتخذون من الدين طريقاً وممرأ سريعاً للوصول الى مراكز السلطة للحاق بطبقة المتدينين البرجوازية والتي بيدها القرار مستغلين بذلك سعة اطلاعهم وقدرتهم على الاقناع، وخصوصاً حينما يكون الجدل مع الطبقة الأقل تعليماً واطلاعاً ممن لا يملكون مستوى ثقافي يؤهلهم لفهم الدين بمعناه الحقيقي.

ف نجد هؤلاء يجادلون ويناقدون ويظهرون انفسهم بمظهر الورع والحريص الذي يؤثر على نفسه ويحاول مستميتاً تغيير أحوال هؤلاء الفقراء والمعدمين وانتشالهم من حالة البؤس التي يعانونها، ولكن هذا منوط عادة بشرط أن يكونوا اتباعاً مخلصين له، كي يتمكن فيما بعد من اغنائهم وتعويضهم عن سنين الحرمان التي عاثوها طوال حياتهم. إن هؤلاء الفقراء لم يتعظوا من تكرار التجارب التي مرت بهم طوال السنين التي خلت، فهم في كل مرة يُخدعون باسم الدين وتنتظلي عليهم الأكاذيب والألاعيب نفسها مع كل دورة انتخابية، وهم في فقرهم قابعين على أمل أن يأتيهم المخلص على حين غفلة من الزمن.

وهناك فئة من المتدينين من المغرر بهم الذين لا مال لهم ولا علم، ولا يملكون ابسط مقومات الحياة، وعادة ما يكون هؤلاء أكثر تطرفاً من غيرهم نتيجة لجهلهم بحقيقة الدين وجوهرة والتغريب بهم من الطبقات الأخرى فهم مُستغلون تابعون لا يفهمون من الدين إلا ما يوحي به لهم اسيادهم. وهؤلاء عادة ما يكونون وقوداً لكل خلاف أو صراع سياسي بين الفئات الحاكمة والأخرى التي تسعى جاهدة للوصول إلى سدة الحكم. وكلا هاتين الطبقتين تستعمل ابناء الطبقة الكادحة أداة للإيقاع بأعدائها أو منافسيها، فهي كطبقة لا قبل لها بالصراع مع اي الطبقتين الأخرين، إنما هي ضحية صراعهما مع بعضهم البعض.

المبحث الثاني: مظاهر التدين

من المشاكل التي يعاني منها المجتمع العراقي والتي ظهرت على السطح بعد عام 2003 هي دخول الدين بقوة في عالم السياسة، ما انتج لدينا (اسلاماً سياسياً). ولعل من الاسباب التي ادخلت الدين لمعترك السياسة بهذا الشكل وبهذه القوة، هو تهميش رجال الدين وأصحاب التوجهات الدينية من قبل النظام السابق، او لنقل عدم السماح لهم بالتدخل في شؤون الدولة إلا في نطاق محدود. وهذا ما أوجد لديهم تعطش للظهور على شاشات التلفاز والقنوات الفضائية واجراء اللقاءات والحوارات والمناقشات للترويج لأفكارهم وطروحاتهم، ما خلق لديهم الكثير من الاتباع ممن هم على شاكلتهم، فضلاً عن انتماءهم للأحزاب والكتل التي جاءت بعد عام 2003 وانتفاعهم المادي واثراءهم من جراء هذه الانتماءات، كل ذلك على حساب فئات وشرائح المجتمع. هذا من جانب، ومن جانب اخر ان اغلب من اعتلوا منصات السياسة هم جاءوا عن طريق احزاب او كتل اسلامية وبالتالي عليهم ان يفسحوا المجال لمن جاء بهم الى هذه المناصب ليبدلي بدلوه كل حين. ورغم هذا كثيراً ما نجد بعض ممن تصدوا لموضوع الدين لا يفتأون يذكرّون مساوئ الحكومات ويسبون ويلعنون من امسك بتلابيب السلطة، يصفونه بالظالم والسارق ... الخ، ويدعون الى التظاهر والخروج عليه، فضلاً عن سياسة الحكومة اصلاً ضد المواطن وحقوق المواطن. وعلى هذا المنوال جرى العديد من المعممين، مما خلق فجوة شاسعة بين الحكومة والشعب يصعب رأبها، "هذه الفجوة تنتج عن بغض الشعب للحاكم وهي ظاهرة اجتماعية قديمة موجودة في كثير من الامم القديمة"⁽¹⁸⁾، ويبدو ان هؤلاء المعممين ليس همهم تبصير المواطن بعيوب الحكومة، بقدر ما هو زيادة غضب وحقد المواطن على الحكومة من جهة واستعطافه للميل والجري وراء هذا المعمم او ذاك، وتكوين اتباع

وقاعدة شعبية يفخر بها ويثري على حسابها، ومليشيا يهدد ويبتز بها من لا يوافقها الاهواء والاراء او من يحاول أن يفضح سرقاته واستغلاله لأتباعه من جهة اخرى. ما نود قوله أن جلّ رجال الدين اتخذ من الدين ذريعة لتحقيق مصالحه الشخصية والحزبية، المادية والمعنوية، والاثراء على حساب شريحة واسعة من مؤيديهم القابعين في فقرهم وحرمانهم.

ومما تجدر الإشارة اليه ان استغلال جهلاء الاسلام لتمرير مشاريع سياسية كبيرة اصبح منهج دولي حاز على اهتمام كثير من الدول الكبرى واعتباره مشروع ناجح لهدم الدول الاسلامية من الداخل وهذا ما نراه اليوم اذ تحاول جهات سياسية تدريب عناصر معينة واعدادهم ليكونوا رجال دين يقودون قطعان من المسلمين الجهلاء لنخر المجتمع الاسلامي من الداخل بخلق الفتن الطائفية والمذهبية والعرقية لضعافه واستغلال ثرواته، كل هذا يجري باسم الدين والمتدينين، وان ما يجري اليوم في العراق وكثير من الدول العربية شاهد على ما نقول.

وتجدر الإشارة الى ان التدين يتمظهر بأشكال عديدة، ولعله يظهر في المجتمع العراقي على نحو مشابه لما يظهر عليه في مجتمعات اخرى. فالمتأمل لطبيعة المجتمع العراقي يجد فيه الكثير من الهيئات والاشارات والتلميحات التي توجي وتشير الى تدين صاحبها، فضلاً عن نماذج السلوك والتصريحات الواضحة التي يتمنطق بها اصحابها في كل محفل للتعبير عن تدينهم او للتعبير عن توجهاتهم الدينية. وفيما يلي بعض من مظاهر التدين على سبيل المثال لا الحصر:

1- **الجدل في الدين:** يرى البعض ان صفة الجدل ترسخت في المجتمع العراقي منذ ايام المعتزلة، "إذ كان مذهب المعتزلة يعتمد على الجدل المنطقي والادلة العقلية في نشر عقائده، وقد اتيح لهم ان يسيطروا على التفكير العراقي مدة طويلة من الزمن" (19). على هذا تعد هذه النزعة متوارثة من سالف الأزمان، خصوصاً إذا عرفنا أنه كان في العراق بعض المدارس الفكرية والفلسفية ومدارس اللغة والأدب في الكوفة والبصرة، وتطور العلوم وانتشار المذاهب الاسلامية في عهد الدولة العباسية.

والجدل الديني في المجتمع العراقي مستمر ولا اظنه ينتهي، وليس سببه ان في العراق طائفتين سنة وشيعة، إذ هو بين ابناء الطائفة الواحدة وبين حتى مصلي المسجد الواحد، وعلى امور تتكرر في كل عام.

ومن المسائل التي يكثر فيها الجدل في اوساط المجتمع العراقي مثلاً، صلاة التراويح في رمضان. إذ يتكرر هذا الأمر في كل موسم، منهم من يقول هي ثمانية ويبدلي بما يدعم به وجهة نظره من احاديث وفعل الأئمة والصحابة، وآخرون يقولون هي عشرون، ويدلون بما لديهم من حجج. وعلى هذا المنوال يتكرر الجدل والنقاش الذي لا يفضي الى رأي متفق عليه. والغريب ان هذا الجدل لا يقتصر على العلماء او أئمة المساجد، بل حتى بين عامة الناس فنجد كل طرف يتزمت في رأيه ويظنه هو الصواب وغيره خطأ، هذا الأمر اجده في كل عام وألمسه في كثير من المساجد.

ومن الامور الاخرى المثيرة للجدل ايضاً، زكاة الفطر، هل يجب اخراجها عيناً اي (مواد)، ام تصح نقداً. ويثور الجدل بها في كل عام بين هذا وذاك وكل يدلي بدلوه، ويقدم الادلة والبراهين التي يحتج بها مستشهداً بأقوال المتقدمين من أهل العلم والحديث. والمعروف ان اغلب المذاهب لا تجيز دفع زكاة الفطر إلا عيناً ولا يمكن دفعها بدلاً نقدياً، إلا الإمام أبي حنيفة، فهو يجيز دفعها نقداً، ولكن المخالفين له يعتبرون رأيه مردود، علماً ان متبعي مذهب ابي حنيفة يبلغ ثلثي عدد المسلمين في العالم، ولكن يبقى هؤلاء المتجادلين ليس لهم من الدين إلا الجدل والتنتعع بالآيات والأحاديث.

وما يثار حوله الجدل والخلاف ايضاً هو هلال رمضان وهلال شوال، اي بداية شهر الصوم ونهايته، فلم يتفق عليه مذاهب اهل السنة والشيعة إلا قليلاً، إذ هم لا يزالون يراقبون الهلال في كل مرة قبل ظهوره بيومين او ثلاثة، ولم يهتدي احد منهم الى تفويض الأمور الى المراصد الفلكية والأبحاث العلمية في هذا الشأن، فلا يزال الهلال موضع خلاف وجدل، وغير هذا الكثير من المسائل التي يثور حولها الجدل بين الناس ولا مجال لذكرها هنا.

وبمثل هذه الأمور تُمتحن أخلاق المتدينين وتظهر حقيقة سرائرهم وما تنطوي عليه نفوسهم من شح وحب الغلبة والانتصار والظهور بمظهر العالم النحرير. وهذا الجدل إنما هو في مسائل فرعية جزئية لا يستطيعون البت بها لأن هي اصلاً من قبيل الاختلاف الفقهي وليس من صلب العقيدة.

2- التعصب الفكري (الأيديولوجي) والتعصب الديني (المذهبي)

التعصب "هو اتجاه عدواني وسلبي لصالح فئة اجتماعية معينة، وعلى ذلك فمن الممكن وصف النزعة العرقية بأنها شكل من أشكال التعصب، وذلك بمقدار ما في هذه النزعة من ميل واستعداد مسبق للحكم على مجموعة عرقية بعينها بأنها في منزلة أدنى من باقي فئات المجتمع. ويعرف ايضا: بأنه مصطلح يستعمل في مجال التأويل عند جادامر، إذ يرى جادامر "ان التعصب - بمعنى الانحياز - شرط مسبق لفعل التأويل، وأنه يتكون من افتراضات المسلم بها، التي يحشدها كل من يقوم بالتأويل ويسخرها في هذا العمل بوصفها شرطاً مسبقاً لا بد منه للوصول إلى فهم النص"⁽²⁰⁾.

وفقاً للتعريف الأول، اجد ان المجتمع العراقي لا يعاني شيئاً من هذا التعصب الذي يشير الى أن طائفة أدنى منزلة من غيرها، فلم نلمس وجود مثل هذه النزعة، وإن وجدت فعلى نطاق ضيق. ولكنه ابتلي بالتعصب الفكري والتعصب الديني.

إن التعصب الديني في العراق ربما يرجع تاريخه الى زمن الامام علي ومعاوية ابن ابي سفيان وما نشب بينهم من فتن وحروب بشأن الخلافة ومقتل عثمان ابن عفان والتي اودت بحياة خلق كثير، فازداد الانقسام بين المسلمين بعدها. "وقد وصل الحال مثلاً في العصر العباسي أن قام الخليفة القادر بالله (381 - 422هـ) بعزل خطباء الشيعة من المساجد في بغداد وأحل مكانهم من اهل السنة، فاحتج خطباء الشيعة وتعرضوا للخطيب السني بمسجد براثا الشيعي وأوسعوه ضرباً حتى كسروا انفه، عندها تدخل الخليفة وانتقم منهم عقاباً لهم وانتصاراً لطائفته من اهل السنة"⁽²¹⁾. ففعل هؤلاء الشيعة، وفعل الخليفة القادر بالله هو الآخر كلاهما كان تعصباً لطائفته. واستمر التعصب في المجتمع العراقي على هذه الشاكلة أخذاً بالازدياد والعمق بمرور السنين.

3- كثرة الوعظ* وشدته

اعتاد الناس في المجتمع العراقي على وعظ او نصح بعضهم بعضاً، فما أن يرتكب احدهم خطأ صغيراً او كبيراً حتى ينهال عليه الناس بوابل من العظات التي لا تزيده إلا اصراراً على ذنبه ربما من غير شعور او عناداً منه.

علما ان التناصح بين الناس امر مشروع، على ان يكون بضوابطه، دون مغالاة او مبالغة، لكن الذي يحصل ان الناس عادة ما يوجهون نصائحهم وعظاتهم الى البسطاء والفقراء من الناس ويتركون الأغنياء والولاة وذوي الجاه والسلطان، والسبب في ذلك كما يراه الوردي

ان هؤلاء الوعاظ – ويقصد بهم هنا رجال الدين وليس عامة الناس – "إنما يعيشون على فضلات موائد الأغنياء والمترفين والطغاة، فعنى هؤلاء الوعاظ متوقف على إرضاء اولياء الأمر" (22)، فهم يشددون على الفقراء في الوعظ ويغضون الطرف عن الولاة والطغاة المترفين.

لم يدرك هؤلاء الوعاظ ان تشديدهم الوعظ بما يخالف الطبيعة البشرية التي جبلت عليه قد يدفع الإنسان لتكوين شخصيات مزدوجة، فهو يظهر امام الواعظ وأمام الناس بمظهر المتدين ويلتزم جانب الوقار المصطنع، لكنه في الجانب الاخر شخصية اخرى يمارس كل اشكال المكر والخداع متى سئحت له الفرصة.

وقد اورد ابن خلدون رأياً شبيهاً بهذا في تأديب الغلمان والمتعلمين والتشديد عليهم بما يكون مضرة بهم فقال: " (من كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين او المماليك او الخدم سطا به القهر وضيق على النفس انبساطها مما يحمله على الكذب والكسل والخبث والتظاهر بغير ما في نفسه خوفاً من المعلم، وربما اتخذ المكر والخديعة عادة وخلقاً وصارت نفسه عيلاً على غيره وكسلت عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل)" (23).

4- كثرة الطقوس الدينية

الراجح ان هذه الميزة امتاز بها المجتمع العراقي اكثر من غيره من المجتمعات الإسلامية الاخرى، واطن سبب هذا يعود في جزء منه الى كثرة فرقه الدينية وكثرة المراقد الدينية الموجودة فيه ايضاً. وللممارسات الدينية التي تقيمها بعض الفرق والطوائف اثر ودور كبير في ادامة هذه المظاهر، فكل فرقة انما تمارس طقوسها الدينية لأنها تعتبرها جزء لا يتجزأ من كيانه بل هي هوية وجودها، وبالتالي فهي لا تقبل المساس بهذا الطقس مهما لحق الضرر بالآخرين او بالمصلحة العامة رغم ان الدين الإسلامي قائم على (لا ضرر ولا ضرار). ومثالاً على ذلك ما يقام من احتفالات في المولد النبوي تغلق بسببها الطرق العامة وتتعطل حركة المرور وتغلق ابواب الدوائر الحكومية والمدارس والجامعات، فضلاً عن تزيين الشوارع وتقديم انواع الأطعمة وهذا كله يتطلب اموالاً ضخمة، في مقابل ذلك هناك الكثير من الأطفال المشردين وكثير من الأسر تبحث عن طعامها في مكبات القمامة. وقس على ذلك ما تمارسه الطوائف الأخرى.

يبدو لي ان القائمين على هذه الطقوس إنما يقومون بهذه الاعمال وبهذا الشكل لسببين هما:

أ- الظهور امام اتباعهم وابناء طائفتهم بمظهر القائم بأمر الدين والمحافظ على طقوسه من الضياع والاندثار، وهذه الطقوس إنما تعني في ذاتها تأكيد الهوية والانتماء لهذه الطائفة او تلك.

ب- فضلا عن هذا كله، تحقيق مكاسب شخصية وفنوية وحزبية، فهم من جانب حصلوا على ما يريدون من مكاسب مادية، ومن جانب آخر فهم بهذا العمل يحضون بتأييد اتباعهم.

5- تقديس الهيئة (المظهر الخارجي)

يجدر بنا هنا ان نذكر بمفهوم قديم يعود لألبورت، أراه جدير بالاهتمام؛ فقد ميز ألبورت في هذا المفهوم بين الدين الباطن والدين الظاهر، ففيما يخص المفهوم الأخير "اشار الى كل ما يتعلق بما هو خارجي من ممارسات وطقوس وغيرها بشكل مرئي ويرائي به صاحبه لغرض المكسب مادياً كان ام معنوياً، في حين اشار في المفهوم الاول الى الجانب الاعتقادي الكامن في اعماق النفس والضمير، إذ يكون الفرد بموجبه (اكثر شغفاً بخدمة معتقده من تسخير له لأغراض شخصية)"⁽²⁴⁾.

في تحليل هذا المفهوم من قبل ألبورت إشارات واضحة لمن يتقصدون الشخصيات وينتقلون مناحل مختلفة ويسلكون طرقاً متنوعة في سبيل تحقيق غاياتهم، ومن هذه المناحل والمسالك هو اللباس الذي يرتديه هؤلاء، فهم يعمدون إلى اشكال معينة من اللباس تميزهم عن غيرهم من الناس كأن يكون الثوب قصيراً إلى ما فوق الكعبين، ويعللون ذلك بأنه من الهدى والسنة، مستغلين جهل الناس بمقاصد الشريعة، فجل الناس يحفظون الآيات والاحاديث ولا يعرفون شيئاً عن مغزاها ومقاصدها، هذا ان هم حفظوها اصلاً.

أما إذا اردنا الحديث عن اللحية فيجب علينا الرجوع قليلاً الى الورا، فقد كانت اللحية في السابق من علامات الرجولة، وعليه فيجب على الرجال اطلاق لحاهم. كان هذا في العهود السابقة التي تغلب عليها النزعة البدوية، واللحية عند البدوي دليل الرجولة. لكن موضوع اللحية بدأ ينحسر شيئاً فشيئاً كلما اخذ الناس بالتمدن والتحضر، واحسبه بدأ مع مجيء البريطانيين الى العراق وأقول سلطة الدولة العثمانية تدريجياً، "فمع دخول القوات البريطانية الى العراق حلت المدارس الحديثة بدل الكتاتيب وحلقات الدراسة التي كانت تقام في المساجد وغيرها، وبدأت اللحية تختفي تدريجياً، وبقي الشارب يتباهى به الشباب ويعودونه من علامات الرجولة وان حلقه يعد من الميوعة، بيد ان موضوع حلق الشارب

او اطلاقه لم يكن له صدى كما كان للحية، ذلك لأن موضوع اللحية يدخل فيه التحليل والتحرير من وجهة نظر بعض العلماء والفقهاء المتعصبين.

كانت السمة الغالبة على الرجال قبل عام 2003 هي حلق اللحية لسببين: الأول ان سلطة النظام تنظر الى الملتحين بشيء من الريبة والشك والمساءلة وهذا يدفع الى حلق اللحية وعدم اطلاقها، والثاني: ان حلق اللحية يعد من قبيل الاناقة والترتيب والظهور بمظهر حضري وجذاب. ولكن كانت هناك فئة من الشباب او الرجال بصورة عامة يطلقون اللحي متحدين تعليمات النظام السياسي، بل يعدون هذا من قبيل الالتزام بتعاليم الدين متحدين بذلك سطوة اجهزة الأمن والحزب الحاكم، وقد لاقوا من جراء ذلك الكثير من الاذى بمختلف اشكاله. بقي موضوع حلق اللحية هي السائد حتى بعد عام 2003 وبقي اصحاب للحي مميزون عن غيرهم بوصفهم متدينين، ولكن تدينهم هذا يبدو انه كان ظاهرياً فقط كما هو حال لحاهم. إذ من خلال المعاشية معهم او مع الكثير منهم وجدنا ان المظهر لا يخبر عن الجوهر ابداء، بل ربما كان متناقضاً اشد التناقض، فهو قد اطلق اللحية للاختباء خلفها والدخول بمداخل تتناقض مع ظاهرهن فنجد البعض منهم وخصوصاً ممن تسنموا منصباً معيناً قد جبر هذا المنصب لمصالحه الخاصة ولأقاربه فضلاً عن اكل الأموال بالباطل وخاصة ما يتعلق بأموال المشاريع او لذوي الإعاقة ما يسمى (بالرعاية الاجتماعية) وغيرها، كما نجد البعض منهم قد حلق لحيته لتتناسب مع بهرج المكتب او المنصب الذي يشغله، أما إذا بقي على لحيته فهو للاختباء خلفها وايهام الناس بمظهره الكاذب. وعلى كل حال فالتدين ليس لحية او عمامة او ثوب قصير ولا حتى صلاة او زهاب الى الحج والعمرة، وانما هو كما ذكرنا غير ذلك تماماً، بل وربما كل هذه السلوكيات تكون احياناً مظاهر لإيهام الناس بالتدين ومن ثم الانقضاض على الفريسة كما قال الشاعر:

"ان الذئاب اذا استتعت لك مرة فحذار منها ان تعود ذئاباً
والذئب اخطر ما يكون اذا اكتسى من جلد ابناء النعاج ثياباً" (25)

الاستنتاجات

من خلال الدراسة تم استنتاج ما يلي:

- 1- ان الدين الاسلامي شيء والتدين شيء آخر، فالدين هو وحي منزل من السماء يحمل رسالة سامية لتنظيم شؤون الناس، أما التدين فهو الممارسات العملية التي يقوم بها الأفراد او الجماعات.
- 2- يلجأ الكثير من الناس الى التدين من اجل التكسب مادياً كان ام معنوياً، وقد اشار الوردي في كتابه وعاظ السلطين ان جُل من يتدينون هم من لم يجدوا لهم فرصة عمل فينزعون الى هذه المهنة لأنها تدر عليهم الكثير من الاموال.
- 3- اعتاد الناس ان يسموا من يلبس الزي الديني (الجبة والعمامة) بأسماء شتى (مُلا، شيخ، إمام، ... الخ). فهو في نظرهم صاحب الدين، اي كأن الدين اصبح يقاس بالهيئة واللباس.
- 4- ان اختزال الدين بتطبيق بعض الشعائر لتسمية الشخص متدين ظاهرة اجتماعية غير صحيحة.
- 5- ان مظاهر الوعظ والنصح في المجتمع العراقي منتشرة بشكل ملفت للنظر، لكنها في الغالب لا تؤتي ثمارها، لأن الواعظ هو نفسه لا يعمل بموعظته ونصيحته.
- 6- ان التدين الحقيقي فيه شروط ثابتة مالم تتوفر في الشخص لا يمكن اعتباره متدين حقيقي.
- 7- اغلب المآسي التي تمر بها الامة الاسلامية اليوم هي بسبب تستر السياسة بجلباب الدين لتمرير مشاريعها اللامشروعة.

التوصيات

- كل المداخل الى التدين غير الحقيقي تأتي من الجهل، لذا يجب تفعيل الخطاب الديني المعتدل ونشر الوعي في المجتمع من خلال القنوات التالية:
- 1- تكثيف المعلومات الدينية في المناهج الدراسية للطلاب بكل المراحل.
 - 2- تخصيص قنوات فضائية لنشر الدروس الدينية التوعوية.
 - 3- تفعيل دور المساجد وفتح الدورات الممنهجة لكلا الجنسين وبكافة الاعمار بإشراف كوادر متخصصة لرفع المستوى الثقافي الديني.
 - 4- كشف المتسترين بالدين من قبل جهات حكومية وتحجيمهم وفق القانون، ثم تشخيصهم وتوضيح مخاطرهم على المجتمع وتحذير الناس منهم.

الهوامش

- 1- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت808هـ)، مقدمة ابن خلدون، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط1، 2007، ص429.
- 2- مصطفى مليكان وآخرون، مطارحات في عقلانية الدين والسلطة، ترجمة أحمد القبانجي، سلسلة ثقافة إسلامية معاصرة/5، د. ت، ص86.
- 3- هاني عواد، التدين الشبابي: (نمط منفلت من المؤسسة الايديولوجية)، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، سلسلة (دراسات واوراق بحثية)، معهد الدوحة، تشرين اول/ اكتوبر، 2011، ص6.
- 4- هاني عواد، التدين الشبابي: نمط منفلت من المؤسسة الايديولوجية، مصدر سابق، ص22.
- 5- عبد الله شلبي، التدين الشعبي لفقراء الحضر في مصر: آليات المصالحة والقبول والرضا والتحايل، مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، القاهرة، ط1، 2008م.
- 6- اسماء بوعود، وحنان طالب، التدين وعلاقته ببعض المتغيرات النفسية الاجتماعية (التوافق الاجتماعي، تقدير الذات) عند عينة من طلبة الجامعة، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، العدد/27، ديسمبر/2016م.

- 7- إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، بيروت، دار العلم للملايين، 1990م، ص219.
- 8- حسين سعيد القحطاني: التدين وعلاقته بالجمود الفكري (البرجماتية)، دراسة ميدانية على طلبة كلية المعلمين لمدينة تبوك، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، سلسلة العلوم الإنسانية، العدد الرابع، 2007م، ص310.
- 9- عبد الله الخريجي: الضبط الاجتماعي، مكتبة رامتان، ط2، جدة، السعودية، 1982م، ص17.
- 10- فاروق محمد العادلي: دراسات في الضبط الاجتماعي، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، 1985م، ص57-62. (بتصرف).
- 11- عبدالستار عبدالجبار، بين الدين والتدين - تصحيح مفهوم، على الموقع الإلكتروني <https://www.alukah.net/sharia> بتاريخ 2017/9/24م.
- * الهدي الظاهر: يعني هدي النبي محمد صلى الله عليه وسلم وسنته في الملبس والمظهر الخارجي.
- 12- ينظر: فارس كمال نظمي، الأسلمة السياسية في العراق، رؤية نفسية، مصدر سابق، ص39 - 40.
- 13- الامام احمد، 12/182.
- 14- البخاري (5090) ومسلم (1466).
- 15- مسند الإمام أحمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط2، 1999م، ج13، ص399.
- 16- سليمان بن الأشعث ابو داود: سنن أبي داود، دار الرسالة العالمية، ط1، 2009 م، ص361.

المصادر

- 1- القرآن الكريم.
- 2- صحيح البخاري
- 3- صحيح مسلم
- 4- مسند الإمام احمد
العدد الحادي والعشرون | 672

- 5- سنن ابو داود
- 6- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، بيروت - لبنان، 1983م.
- 7- أحمد بن محمد بن هلال، (مسند الامام احمد)، دار الحديث - القاهرة، ط1، 1995م.
- 8- اسماء بوعود، وحنان طالب، التدين وعلاقته ببعض المتغيرات النفسية الاجتماعية (التوافق الاجتماعي، تقدير الذات) عند عينة من طلبة الجامعة، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، العدد/27، ديسمبر/2016م.
- 9- إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، بيروت، دار العلم للملايين، 1990م.
- 10- اندرو إدجار وبيتر سيد جويل، موسوعة النظرية الثقافية، المفاهيم والمصطلحات الأساسية، ترجمة هناء الجوهري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2009م.
- 11- حسين سعيد القحطاني: التدين وعلاقته بالجمود الفكري (البرجماتية)، دراسة ميدانية على طلبة كلية المعلمين لمدينة تبوك، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، سلسلة العلوم الإنسانية، العدد الرابع، 2007م.
- 12- خالد كبير علال: التعصب المذهبي في الفكر الاسلامي، ط1، 2015م.
- 13- سابينو اكوافيفا، ود. إنزو باتشي، علم الاجتماع الديني، الإشكالات والسياقات، ابو ظبي، هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2011م.
- 14- شهاب الدين محمد بن أحمد الأبيهي: المستطرف في كل فن مستظرف. بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1986م.
- 15- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت808هـ)، مقدمة ابن خلدون، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط1، 2007م.
- 16- عبد الستار عبد الجبار، بين الدين والتدين - تصحيح مفهوم، على الموقع الالكتروني <https://www.alukah.net/sharia> بتاريخ 2017/9/24م.
- 17- عبد الله الخريجي: الضبط الاجتماعي، مكتبة رامتان، ط2، جدة، السعودية، 1982م.

- 18- عبد الله شلبي، التدين الشعبي لفقراء الحضر في مصر: آليات المصالحة والقبول والرضا والتحايل، مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، القاهرة، ط1، 2008م.
- 19- علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، مطبعة العاني، بغداد، 1965م.
- 20- علي الوردي، وعاظ السلاطين، دار كوفان - لندن ، ط2، 1995م.
- 21- فاروق محمد العادلي: دراسات في الضبط الاجتماعي، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، 1985م.
- 22- مصطفى مليكان وآخرون، مطارحات في عقلانية الدين والسلطة، ترجمة أحمد القبانجي، سلسلة ثقافة إسلامية معاصرة، 2001م.
- 23- هاني عواد، التدين الشبابي، نمط منفلت من المؤسسة الايديولوجية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، سلسلة (دراسات واوراق بحثية)، معهد الدوحة، تشرين اول/ اكتوبر، 2011م.
- 18- علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، بيروت - لبنان، ط1، د.ت، ص388 .
- 19- علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، مصدر سابق، ص316.
- 20- اندرو إيدجار وبيتر سيد جويل، موسوعة النظرية الثقافية، المفاهيم والمصطلحات الأساسية، ترجمة هناء الجوهري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2009 ، ص184- 185 .
- 21- خالد كبير علال: التعصب المذهبي في الفكر الاسلامي، ط1، 2015 ، ص122 - 123.
- * رغم انه ورد في الحديث (الدين النصيحة) إلا انه تجدر الإشارة هنا الى ان المفهوم الشائع عن الوعظ هو ما كان يتعلق بالأمور الدينية، وما سوى ذلك فيغلب عليه مفهوم (النصح).
- 22- علي الوردي، وعاظ السلاطين، دار كوفان - لندن ، ط2، 1995 ، ص11 .
- 23- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق ، ص577.
- 24- سابينو اكوايفا، ود. إنزو باتشي، علم الاجتماع الديني، الإشكالات والسياقات، ابو ظبي ، هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث، كلمة ، 2011 ، ص98 - 99.
- 25- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، بيروت - لبنان، 1983م، ص94.